تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

توفيق الحكيم فى ميزان الفن والنقد :

الرأى الذى كونته لنفسى عن فن توفيق الحكيم قبل أن أعرفه ، هو الرأى نفسه الذى انتهيت إليه بعد أن عرفته . كل ما حدث هو أن معرفتى به قد زادتنى اقتناعاً بهذا الرأى وإيماناً به . أما هذا الإيمان فقد قام على دراسة بعيدة المدى لفنه أولا ولشخصه ثانياً ، وأستطيع أن أقرر وأنا مطمئن أن كل ما أكتبه هنا — فى رأيى على الأقل — يتسم بسمة المعرفة ، والصدق ، والثقة التى تستمد عناصرها ومقوماتها من الواقع الملموس .

أول مزية من مزايا هذه الشخصية الفنية أنها من الشخصيات النادرة التى تتمتع بحظ كبير من القلق النفسى ، وهو أول أداة من أدوات كاتب القصة . . . ومن طبيعة الشخصية القلقة أنها تثير دائماً ألواناً من « الصراع الفكرى » فى ثنايا القصة والمسرحية ، وكلتاهما تعتمد أول ما تعتمد على هذه الدعامة الفنية الفذة ، وأعنى بها « الصراع » ! القلق الدفين والشك الملح صفتان تجريان مجرى الدم فى طبيعة توفيق الحكيم النفسية ؛ ومن هنا نجد شخصيته القلقة منعكسة بوضوح فى أكثر ما يكتب ، ويستطيع الذين لم يتصلوا بهذا الكاتب ، ولم يتهيأ لهم أن يعرفوه معرفة خبرة ودراسة ويقين ، أن يلتمسوه هناك فى كثير من شخصيات قصصه ومسرحياته ... إنها شخصيات حائرة ، قلقة ، مترددة ، يندر أن ينتهى بها المطاف إلى استقرار . وهكذا نجد توفيق الحكيم فى واقع الحياة ؛ يعيش فى دنياه هو لا فى دنيا الناس : فى تأملاته ، فى تهويماته ، فى سبحاته الروحية ؛ وهو لهذا كله يثير فى فنه أشتاتاً من المشكلات الفكرية العميقة التى تحفل بالصراع ، ولكن أى صراع ؟ إن توفيق الحكيم يذهب فى مقدمة « أوديب الملك » إلى أنه يقيم الصراع دائماً على دعامتين : الواقع والحقيقة ، أى أنه يترك أبطال قصصه ومسرحياته فى خضم من « الصراع الفكرى » الذى تتجاذبهم فيه أمواج الواقع من هنا وأمواج الحقيقة من هناك . . هذا حق ولكنه ليس كل الحق ؛ إن فى بعض مسرحياته صراعاً بين الواقع والخيال ، وقد يبدو الخيال لبعض الواهمين ضرباً من الحقيقة ، كما حدث لبعض شخصيات توفيق الحكيم فى « شهر زاد » و « سليمان الحكيم » !

وسواء أكان الصراع فى « أهل الكهف » و « أوديب الملك » صراعاً بين الواقع والحقيقة ، أم كان صراعاً بين الواقع والخيال كما حدث فى « شهر زاد » و « سليمان الحكيم » ، سواء أكان هذا أم ذاك فإنك تخرج من هذا « الصراع الفكرى » بظاهرة فنية ملموسة ، وهى أن شخصيات توفيق الحكيم القصصية تفر من الواقع هنا وهناك . . . وسمة أخرى نجد هذا الفنان متمكناً بلحمه ودمه على صفحة فنه ، لماذا ؟ لأن هذه هى طبيعته النفسية والفكرية ؛ لقد قدر له أن يلقى الحياة بهذه الطبيعة العجيبة ، يلقاها ليفرمنها ، جرياً وراء الحقيقة أو جرياً وراء الخيال !

« الصراع الفكرى » هو السمة الغالبة على آثار توفيق الحكيم الفنية ، أما « الصراع النفسى » فلن تجد منه إلا ومضات لا تلبث أن تشع حتى تختفى ... فى هذا التيه من التأملات الفكرية والتهويمات الذهنية ، وتستطيع أن تلمس هذا بوضوح فى « أوديب الملك » ؛ لقد حاول توفيق الحكيم جاهداً أن يتخلص من هذه الظاهرة التى تفرض نفسها على فنه ليعتمد بتمثيلية سوفوكل من حيز « المسرح الذهنى » ولكنه لم يستطع ... من هنا تنبع شكواى من فن توفيق الحكيم ؛ شكواى من انعدام « الصراع النفسى » ! إن أول مزية من مزايا هذا الصراع هى أنه حين يرسم لك الخطوط الرئيسية فى مشهد من المشاهد أو فى شخصية من الشخصيات ، يجعلك تعيش بفكرك وشعورك فى محيط هذا الجو الذى تمتزج به ويمتزج بك ، فإذا أنت متجهم فى جو المشهد القاتم والشخصية العابسة ، وإذا أنت منطلق الأسارير فى جو المشهد الوضىء والشخصية الباسمة ... لهذا كله لم يهتز فى « أوديب » فى محنته ؛ أوديب الذى تحالفت عليه القادير فقتل أباه وتزوج من أمه . وكذلك لم تهتز « جوكاستا » الشقية البائسة ؛ جوكاستا التى تنجاب عن عينيها الغشاوة يوماً فترى أن الزوج هو الابن ، وأن الأطفال الأحياء قد خرجوا إلى الحياة ، كما خرج أبوهم من قبل ... خرجوا جميعاً من بطن واحد !

هذا النقص فى « الصراع النفسى » تحل محله موهبة أخرى فى « الصراع الفكرى » ، ولولا هذه الموهبة الفذة لما ملىء هذا الفراغ فى فن توفيق الحكيم ... إن طبيعته القلقة قد انعكست

على شخصيته الفنية فأكسبتها فيضاً من المزايا التي لا تجتمع كثيراً لغير هذا الفنان : منها هذه الحرارة المتدفقة التي يضفيها على فنه إشعاع ساطع من عنف الصراع ونفاذ التأملات ، وتلك الحركة الحياشة التي تشيع في ثنايا المواقف النابضة بالحيوية والانطلاق

ومع ذلك فأنا أرجح من الذين قرأوا « أوديب الملك » وغيرها من المسرحيات التي يطبعها طابع « الصراع الفكري » أن يرجعوا إلى « سليمان الحكيم » ... إنهم سيلمسون ظاهرة فريدة لا عهد لهم بها في فن توفيق الحكيم . ظاهرة وقفت عندها وأطلت الوقوف ، ودرستها في كثير من التأمل وإنعام الفكر ... « صراع نفسي » وهذا هو العجب ، « وقلب إنساني » وهذا هو الأعجب! ترى أكان توفيق يوم كتب « سليمان الحكيم » يعيش في نفس التجربة التي صورها بريشته لقلب « بلقيس » حين خاض هذا المعترك الرهيب بين حب « منذر » وحب « سليمان » ؟ أكاد أقطع بصحة هذا الظن ، وإلا لما استطاع توفيق الحكيم أن يهزني كل تلك الهزات الشعورية العميقة في هذا العمل الناضج من أعماله الفنية ؛ أقول « هزات شعورية » لأن العهد بتوفيق الحكيم أنه في أغلب آثاره لا يهز قارئه إلا « هزات فكرية » ! ...

« سليمان الحكيم » في إنتاجه كله تقف وحدها متفردة بأكمال « الصراع النفسي » وقوة النبضات في القلب الإنساني ، وحكم التفرد أمر لا يقاس عليه إذا ما أقنا الميزان للشخصية الفنية على مدار إنتاجها كله ؛ ومعنى هذا أنني أعود فأكرر بأن « الصراع الفكري » هو السمة الغالبة على آثار توفيق الحكيم الفنية ... الحمسة في فنه تنبع من الشفتين لا من القلب ، والقسمة في فنه تأتي من الذهن لا من النفس ، والانفعال في فنه يصدر من إطالة التأمل لا من جيشان العاطفة . وهذا هو توفيق الحكيم في واقع الفن وواقع الحياة !

تعال بعد ذلك أحدثك عن موهبة أخرى في فن توفيق الحكيم هي موهبة الحوار — قد تقول لي إن توفيق الحكيم ينطق شخوص قصصه ومسرحياته في بعض الأحيان بما يبعد عن أن تنطقهم به الحياة . إنني أوافقك على ما تقول ، ولكنك لا تستطيع أن تنكر أنه يدير دفة الحوار بمهارة فائقة تنسيك هذا الجانب الذي يلوح منه شبح الاعتراض . ولا تستطيع أن تنكر أيضاً أنه قماص قادر على الانفعال في تلك المواقف التي تتطلب دفقات هائلة من السرعة والحركة وحرارة التعبير ، وتلك مزية تنقص الكثيرين من كتاب القصة !

أما الموهبة الأخيرة التي تهزني في فن توفيق الحكيم فهي أن القصة بين يديه تمتاز بـ « التصميم الفني » ... إنه يعرف كيف تبدأ القصة ، وكيف تسير . وكيف تنتهي ، دون أن يكون هناك شذوذ أو اضطراب في هذه المراحل الثلاث ؟

هذا هو كل ما يمكنني أن أقدمه إلى الأستاذ محمد عادل الرمضاوي في حدود المجال الذي طلب إلي أن أكتب فيه ، وإنني لأرجو أن أكون قد وضعت بين يديه مفتاح هذا الباب الموصد أو مفتاح هذه القلعة المنغلقة ... على حد تعبيره حين كتب إلي مشيراً إلى شخصية الأستاذ توفيق الحكيم الأدبية والإنسانية!

كرافتشنكو ينتصر على مجلة « ليتر » الفرنسية :

أخيراً وبعد نضال مرير عاصف عنيف شهدت أدواره جوانب قاعة المحكمة بمبنى العدل في العاصمة الفرنسية ، أصدر القضاء حكمه في صالح الكاتب الروسي الثائر على نظام الحكم في بلاده ... فيكتور كرافتشنكو ! وبهذا الحكم الفاصل بين صاحب « آثرت الحرية » وبين القائمين على أمر مجلة « ليتر فرانسيز » ، تنهار أمثلة الاتهام التي وجهها خصوم الكاتب الروسي إلى حقيقة كتابه وما حوى من وقائع ومعلومات ! .

إنها لطمة قاسية من غير شك ، تلك التي وجهها القضاء الفرنسي منذ أيام إلى الشيوعية الروسية الفرنسية — وأية لطمة أقسى من أن يصدر حكم القضاء مؤكداً نسبة الكتاب إلى صاحبه ، ومؤيداً لكل ما تضمنه من بيانات أوردها كرافتشنكو ليدلل بها على فساد نظم الحكم في بلاده ، تلك النظم التي تحد من حرية الرأي والفكر ، وتلغي الكرامة الفردية والعقلية وكل ما يقتضيه الأحرار من مثل في المجتمع الكريم !!

إن كرافتشنكو يخرج اليوم مرفوع الرأس ، بعد أن حكم له القضاء بتعويض قدره خمسون ألف فرنك عن الجزء الأول من الدعوى التي رفعها على المجلة الشيوعية الفرنسية ، وبعد أن حكم له بتعويض آخر مماثل للتعويض الأول في مقابل الجزء الثالث من الاتهام ... أما مسيو كاوه مورجان مدير المجلة ومسيو أندريه ورمستر رئيس تحريرها فقد قضت المحكمة بتغريم كل منهما مبلغ خمسة آلاف فرنك ؛ ومع إلزامها بنشر هذا الحكم في أول صفحة من صفحات « ليتر فرانسيز » ... بمجلتهما الأسبوعية !!

هذا هو ما وافتنا به شركات الأنباء عن آخر مرحلة من

مراحل هذه القضية المثيرة ، ولكن هيئة الدفاع عن مجرى المجلة الفرنسية تمد المدة لاستئناف هذا الحكم فى الأيام المقبلة ... ومعنى هذا أن هناك فصلا أخيراً يهم النظارة أن يشهدوه ! .

« كافر » للشاعر السورى زهير ميرزا :

هذه مجموعة شعرية تستحق تحية القلب وتحية القلم .. قال صاحبها وهو يتفضل مشكوراً بإهدائها إلىّ : « أقدم إليك هذا الشعر ، صدى لكلمتك (تحية قلبية وأخرى قلمية) ، التى لولاها ولولا الرسالة ما تم مثل هذا اللقاء الفكرى الذى أرجو أن يكون فاتحة صداقة مقدسة ، رائدها الكفر بالمفاهيم للإيمان بها » ! ... إهداء فيه تحليق وشعر فيه تحليق ، وأنا أحب أن أعيش فى أجواء المحلقين من أمثال زهير ميرزا ، سواء كانوا كتاباً أم شعراء .

أجل ما فى هذه المجموعة الشعرية أن زهير ميرزا يسكب شعره فى قالب من الحوار الفنى الذى يدور حول فكرة ، تنبع من أعماق الشعور لتحلق على أجنحة الخيال ... ولا أقول إن الفكرة جديدة ، ولكن الجديد فيها هو تلك اللقطات البارعة التى تجيد اختيار الزاوية فى مجال الإخراج الفنى للصورة النفسية ، تلك التى يتسع لها إطار التعبير ولا يزيد !

صورة من النفس يلفها وشاح من ومضة الفكر ، وإذا أنت فى « الحقيقة الكبرى » مأخوذ بصراع العقل والعاطفة بين « قر » و « شهر زاد » ... هناك حيث تنفر الروح من هذا « الشىء » المادى الذى تبلى جدته فى عالم الواقع وتحيا فى عالم الوهم الطليق ! وهكذا يمضى زهير ميرزا فى « لقاء » « وغانية وفكر » و « كافر » و « مصرع المثال » ... أما « لقاء » فتصور هذا النضال النفسى الذى يثيره « نداء الأعماق » فى طريق قد خلت من كل شىء إلا من فتى وفتاة ؛ أمواج من دماء الوجدان تعترض سير الشراع الحالم ولا تزال به حتى يثب تحت أطباق الضباب ! وفى « غانية وفكر » يقبل جسد وتعرض روح ... وتحتدم المعركة بين القلب المشبث من وقدة نار تتأجج ، وبين الفراشة التى تحوم حول النور تبغى الضياء ولا تريد أن تحترق ؛ إن ريشة زهير قد بلغت الغاية فى تلوين هذه اللوحة التى تمثل ثورة الصراع بين بائسة الجسد وبين راهب الفكر ! .. أما « كافر » فتنقلك إلى ذلك الجو الفكرى السابح فى أعماق الوجود وحقيقة الحياة ؛ هل تذكر قصيدة « الطلاسم » لإيليا أبى ماضى ؟ إن جناحى زهير ميرزا يضربان فى هذا الأفق ضربات عميقة تهز الخيال المحلق فيما وراء المجهول !

إننى لا أريد أن أقدم للقراء بعض النماذج من هذه المجموعة الشعرية حتى لا يفتنهم القليل عن الكثير ، إننى أود أن يرجعوا إلى المجموعة كلها ليقضوا مع الشاعر لحظات جميلة ومتعة كتلك التى قضيتها معه ... أما أنت يا صديق زهير فيسعدنى أن نكون صديقين ، يلتقيان على الكفر بالمفاهيم للإيمان بها ، وليس أحب إلىّ من هدم يقوم على أنقاضه بناء !!

جوهر النفوس عندنا وعندهم :

نشرت « المصور » فى الأسبوع الماضى صورة لصبى أمريكى يجلس بين أكوام من الأوراق المالية ، ثم أشارت إليه بهذه الكلمات : « إنه (بوبا) الفتى القصد الذى ضاق ذرعاً ذات مساء بوحدته وبالحياة ، فقصد إلى دار الإذاعة فى ولاية تكساس بأمريكا ، حيث ناشد المستمعين أن يمدوه بمبلغ (الدراهم) التى تعينه على الحياة ... وما كادت تنقضى بضعة أيام حتى دعى إلى مقر البريد حيث سلمه مديرها الرسائل التى وردت إليه من أنحاء الولاية استجابة لدعوته . وقد وجد الفتى نفسه غارقاً فى أكوام من الرسائل تحمل فى داخلها ثروة تقدر بعشرين ألف دولار ، هبطت إليه من السماء » !

هل تستطيع أن تقف معى لحظات لنزن هذا الخبر الذى يحمل إلينا قليلا من الألفاظ وكثيراً من المعانى ؟! ترى لو كان هذا الصبى القصد فى مصر ، وذهب إلى دار الإذاعة ليذيع نداء الحاجة على ذوى القلوب الرحيمة ، ترى ماذا كان يحدث ؟ الشىء الذى أتصوره ولا يمكن أن أتصور شيئاً سواه ، هو أن يهاجم ذوو القلوب الرحيمة دار الإذاعة هجوماً لا « رحمة » فيه ، لأنها سخرت الجهد وأضاعت الوقت فى خدمة المتعدين والمتسولين ! .. والشىء الذى أتوقعه ولا يمكن أن أتوقع شيئاً سواه ، هو أن تضج الصحف بالشكوى من تفاهة هذا « البرنامج » الذى تتفتق عنه أذهان الشرفين على الإذاعة ، أولئك الذين لا هم لهم إلا إزعاج المستمعين !

آلا ما أبعد الفارق بيننا وبينهم ... هناك قلوب من ذهب وهنا قلوب من قصدير !!

أنور المعداوى